الكاتب المصرى

ذو الحجة ١٣٦٥ — نوفمبر ١٩٤٦

السنة الثانية — مجلد ٤ — عدد ١٤

ما وراء النهر

لست أدرى أين وقعت أحداث هذه القصة، ولكنى أقطع بأنها لم تقع فى مدينة القاهرة. فقد تتبعت شاطئ النيل كله فى هذه المدينة، فلم أجد ربوة شديدة الارتفاع والاتساع، يقوم عليها قصر فخم ضخم شاهق فى السماء، ويتكاثف فيها شجر باسق ملتف يظل ضروبا من النجم لا تعد، وفنوناً من الزهر لا تحصى. وهذه الربوة المرتفعة الواسعة تنحدر فى يسر إلى النهر، كأنما تسعى للقائه، أو كأنما تيسر للشجر والزهر السعى للقائه.

لم أجد على شاطئ النيل فى القاهرة هذه الربوة ولا شيئاً يشبهها، ووجود هذه الربوة شرط أساسى لوقوع الأحداث التى تعرضها هذه القصة. فما أظنك تخالفنى فى أن ما يمس الإنسان من الأحداث وما يصور هذه الأحداث من قصص، لا يمكن أن يتم إلا إذا كان له مكان معروف بحدوده وأوصافه. وقد وقعت أحداث هذه القصة فى مكان، ما فى ذلك شك، بل وقعت فى هذا المكان الذى وصفته وصفاً موجزا. وأكاد أعتقد أن هذا المكان نفسه هو الذى أنشأها، وهو الذى ابتكر أحداثها ودفع أشخاصها إلى إجراء هذه الأحداث.

وقد علمنا النقاد منذ عهد بعيد أن هناك صلة متينة دقيقة بين أقوال الناس وأعمالهم، وبين البيئة التى يعيشون فيها ويتأثرون بدقائقها فى حياتهم اليومية. ولو قد عاش أشخاص هذه القصة فى دار متواضعة أو فى قصر يقوم على الأرض المنبسطة السهلة، لا على هذه الربوة المرتفعة التى تمتاز مما حولها من الأرض، وترفع قصرها فوق ما حولها من القصور والدور، وتنحدر بشجرها

وزهرها فى سذاجة ويسر إلى النهر — أقول لو قد عاش أشخاص هذه القصة فى دار متواضعة أو قصر يقوم على السهل لما أجروا ما أجروا من الأحداث ، ولما أصابهم ما أصابهم من الخطوب . فغرفات القصر وحجراته ، وأفنية القصر وأبهاؤه ، وهذه الدهاليز الكثيرة الملتوية ، وهذه السلالم الكثيرة المختلفة ، وهذا الشجر المتكاثف الملتف ، وهذه النجوم المتقابلة المتدابرة ، وهذا الزهر المنسق المنمق ، كل أولئك قد فرض على أهل القصر لوناً او ألواناً من الحياة لم يكونوا يستطيعون إلا أن يخضعوا له ويسلكوا فى سيرتهم ما يلائمه ، وكل أولئك قد أغرى هذا الشخص أو ذاك من أشخاص القصة بهذا العمل أو ذاك من أعماله ، وبهذا القول أو ذاك من أقواله ، بحيث لم يكن بدٌّ من أن تحدث هذه الأحداث فى هذا المكان المقسوم لها دون غيره من الأمكنة ، وإلا لبطلت قواعد الفن ، ولفسد التاريخ الأدبى ، ولذهب الأدباء بإنتاجهم الأدبى كل مذهب وسلكوا به كل سبيل ، لا يخضعون لأصل من الأصول ، ولا يتقيدون بقانون من القوانين التى وضعها أرسطاطاليس وأسلافه وأخلافه ولم يفرغوا من وضعها إلى الآن

وإذن فلا بد لهذه القصة من ربوة عظيمة الارتفاع والاتساع ، ومن قصر شاهق ، وشجر باسق ، وزهر رائق ، ونجم شائق ، ونهر دافق يجرى من تحت هذا كله فى أناة حيناً وفى عنف حيناً آخر . فإذا فقد شىء من هذا ضاعت القصة . وما أظنك ترغب فى أن تضيع ؛ فأنت محتاج إليها لتنفق الوقت فى القراءة ، وأنا محتاج إليها لأنفق الوقت فى الإملاء ، والمجلة محتاجة إليها لتملأ عدداً من صفحاتها قليلا أو كثيرا . كل شىء يضطرنى إلى أن أملى ، وكل شىء يضطر المجلة إلى أن تنشر ، وكل شىء يضطرك إلى أن تقرأ ، وكل أولئك يفرض علينا جميعاً أن نقبل هذه الربوة وما فيها وما عليها لنمضى فيما يُسِّر له كل منا من الكتابة والنشر والقراءة . فلتكن هذه الربوة ما دام لا بدّ لها ولنا من أن تكون . ولكنها لا تستطيع أن توجد فى القاهرة لأن شاطئ القاهرة منبسط مستو ليس فيه نجاد ولا وهاد . فلو زعمنا أن الربوة قائمة فى هذا المكان أو ذاك من المدينة لاستطاع من شاء من القراء أن يواجهنا بالإنكار ويخاصمنا بالحقائق الواقعة ، ويضيع علينا القصة وما يذلنا فى كتابتها ونشرها وقراءتها من الجهود .

وأكاد أعتقد أن هذه الربوة لا توجد على شاطئ النيل فى مصر كلها . فلست أزعم أنى قد تتبعت الشاطئ المصرى كله على النيل ، ولكنى لم أسمع قط عن ربوة كهذه الربوة ، ولا عن قصر كهذا القصر . ولو قد وجدت هذه الربوة وقصرها الشاهق وجنتها الرائعة لكثر عنها الحديث فى كتب الخطط أولاً ، وفى الصحف والمجلات ثانياً ، وعلى ألسنة الناس بعد ذلك ؛ لأن جو مطر من الصفاء والنقاء بحيث لا يخفى شىء فيها على أحد من الناس إلا أن تتكاثف عليه الرمال كما تتكاثف على الآثار . وقصتنا لم تحدث فى العصر القديم ، وإنما تزعم أنها حدثت فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، عاصرتنا أو سبقتنا إلى الوجود بوقت قصير جداً .

ومن الجائز أن تكون هذه الربوة مسحورة ، توجد لتفنى ، وتفنى لتوجد ، تظهر اليوم لتستخفى غداً ، وتستخفى غداً لتظهر بعد غد ؛ شأنها فى ذلك شأن كثير من المدن والقرى التى يتحدث عنها القصاص ويراها الرحالون فى قلب الصحراء أو فى أطرافها . ولكنى أستبعد ذلك ، لا لأنه فى نفسه بعيد أو مخالف لقوانين الطبيعة ؛ فقوانين الطبيعة لا تستطيع أن تثبت أمام قوانين الفن ، وقوانين الفن تبيح أن توجد الربى وتفنى ، وأن تظهر وتخفى ، بل هى تبيح أن توجد هذه الربوة فى مدينة القاهرة نفسها إلى أن تقع أحداث القصة . ثم تمضى بما عليها ومن عليها كأن لم تغن بالأمس . وما دام الزمان يمضى فليس بأس من أن يمضى المكان كما يمضى الزمان . وإذا استبعدت أن تكون هذه الربوة فى مدينة القاهرة ، فمصدر ذلك أن القراء يتفاوتون فى الثقافة ويختلف علمهم بأصول الفن . وما أحب أن ينجم لى منهم قارئ أو قراء يزعمون لى أن لا وجود لهذه الربوة فى القاهرة ويجادلون فيما لا معنى للجدال فيه .

وأنا مع ذلك أستبعد أن تكون هذه الربوة مصرية لعلة أخرى لا تتصل بطبيعة الأرض ولا بتقويم البلدان ، وإنما هى أعظم خطراً من طبيعة الأرض ومن تقويم البلدان ، لأنها تتصل بالأخلاق .

فأهل مصر كلهم أخيار أبرار ، لا يحبون شيئاً كما يحبون العدل ، ولا يبغضون شيئاً كما يبغضون الجور ، ولا يؤثرون شيئاً كما يؤثرون ذكاء القلب وصفاء النفس وطهارة الضمير ، ولا يرفعون أنفسهم عن شىء كما يرفعونها عن

مقارفة الإثم ومصاحبة الفساد: ينأون عن السيئات أشد ما يكون النأى، ويتجافون عن الموبقات أشد ما يكون التجافى، وينزهون أنفسهم عن الخطيئة أشد التنزيه؛ فلست ترى بينهم قوياً يستذل ضعيفاً، ولا غنياً يستذل فقيراً، ولا ناعماً يستطيل على بائس، ولا سعيداً يستخف بشقى. ولست ترى بينهم متعجلا للمنفعة، ولا مؤجلا لعمل من أعمال البر، ولا مضحياً بمصلحة الكافة فى سبيل المصلحة الخاصة، ولا مؤثراً لنفسه بالخير من دون مواطنيه. ولست ترى بينهم من يستحب الحياة الدنيا على الآخرة، ويؤثر العاجلة على الآجلة، ويتهالك على اللذات لا يصطنع فى سبيلها أناة ولا وقاراً، ويقبل على الآثام لا يرى فى الإقبال عليها حرجاً ولا جناحاً؛ لست ترى من بينهم أحداً يهم بشىء من ذلك أو يفكر فيه أو يصد نفسه عنه متكلفاً من الجهد قليلا أو كثيراً، وإنما هم قوم فُطِروا على البر والاحسان، ورُكّبت فى طبائعهم خصال التعاون والتناصف والاستباق إلى الخيرات، وائتلفت أذواقهم من حب الجمال المادى والمعنوى؛ فهم يكرهون أشد الكره القبح الذى تتأذى به العيون، وهم ينفرون أشد النفور من القبح الذى تشمئز منه النفوس، حياتهم الأولى فى هذه الدنيا مشاكلة كل المشاكلة لحياة الصالحين المقربين فى الجنة التى وعد الله عباده المتقين. وفى هذه القصة، كما سترى، شىء من ظلم وجور، وشىء من استطالة واستعلاء، وشىء من الاستئثار باللذات فى غير تحرج، والإقدام على الآثام فى غير تحفظ، والاستهتار بما يأبى الرجل الكريم أن يستهتر به أو يظهر الناس على ميله إليه ورغبته فيه. فلا يمكن إذن أن تحدث هذه القصة فى مصر؛ لأن أحداثها منافرة أشد المنافرة للمعروف المألوف من أخلاق المصريين فى عصورهم المختلفة وفى عصرهم هذا الحديث خاصة؛ لأن الأخيار يمضون فى الخير كلما تقدم الزمان، كما أن الأشرار يتخففون من الشر كلما ارتقت الحضارة. وأكبر الظن أن حياة المصريين قد بلغت من الصفاء والنقاء على تقدم الزمن طوراً ليس بينه وبين حياة الملائكة فى السماء إلا آماد قصار. وإذا كان الجيل المعاصر منهم يسعد بهذه الحياة الراضية الرخية النقية أكثر مما سعدت الأجيال الماضية، فانه على سعادته العظيمة شقى بالقياس إلى ما ستظفر به الأجيال المقبلة من هذه السعادة التى لا يمكن أن توصف بلغة الناس لأنها لم تُقدَر للناس فى حياتهم الدنيا.

ليست هذه القصة مصرية إذن ؛ لأن مكانها لا يوجد فى أرض مصر ، ولأن أشخاصها لا يعيشون فى جو مصر ، ولأن أحداثها لا تلائم طبائع المصريين . وإذن فقد تسأل نفسك كما أسأل نفسى : أين وقعت أحداث هـذه القصة ؟ والحق أن الجواب على هذا السؤال ليس شاقا ولا عسيراً ؛ فما أكثر البلاد التى ترتفع فيها الربى على ضفاف الأنهار ، وترتفع فيها القصور الشاهقة المترفة على قمم الربى ! وإذا لم تكذبنى الذاكرة فان شاعراً من أصحاب الموشحات قد صوَّر لنا ربى كثيرة فى أسبانيا ، كان يطلب إلى السحب أن تجلل تيجانها بالجلى ، وأن تجعل منعطفات الجداول لها أساور من لجين ، وإن شئت فقل أساور يختلف معدنها باختلاف ما يلقى عليها من الضوء وما يعكس عليها من الألوان ؛ فهى من فضة حين يمتع النهار ، وهى من ذهب حين يترقرق على صفحاتها ضوء الأصيل . والمهم أن هذا الشاعر الموشح الموفق قد دلّنا على مكان هذه الربوة الرائعة التى يقوم عليها هذا القصر المنيف . فلنقلْ إذن إنها فى أسبانيا . وأنت تعرف أن أسبانيا هى البلد الذى يبنى الخيال فيه ما يشاء من القصور ومن القصور المطاوعة التى ترتفع فى السماء وتتسع فى الفضاء ما شئت لها الارتفاع والاتساع ، والتى تنخفض وتنقبض حين تريد لها الانخفاض والانقباض ، والتى تندك وتنهار وتصبح أطلالاً باليـة حين تريد أن تقف عليها كما كان يقف الشعراء القدماء على أطلالهم ، وأن تنشد عليها هذا الشعر الذى أنشده النابغة على طلله القديم :

يادار ميـة بالعليـاء فالسنـد ... أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيـلالاً أسائلها ... عَيَتْ جواباً وما بالربع من أحد

ربوتنا إذن فى أسبانيا ، قد أشرفت على نهر من أنهارها ، وانحدرت إليه كما قلت فى سهولة ويسر ، واتخذت لنفسها من الشجر والزهر تاجاً رائعاً بارع الجمال ، واتخذت لتاجها هـذا الرائع البارع من ذلك القصر الشامخ الباذخ الأنيق درة نادرة المثال منقطعة النظير ، تستطيع أن تلتمس لها اسما بين هذه الدرر الكثيرة التى يأتلف منها كتاب العقـد الفريد لذلك الكاتب الشاعر الأندلسى العظيم .

ولكنى لم أصف الربوة حق وصفها ولم أصورها كما ينبغى لها أن تصور. فأنت لا تحسن الوصف والتصوير لشئ من الأشياء إلا إذا وصلت به ملحقاته التى تكمله وتعطيه صورته النهائية، إن أتيح لشئ من الأشياء فى هذه الحياة أن يظفر بصورته النهائية فى يوم من الأيام. ولهذه الربوة ملحق لا يمكن إهماله لأن إهماله يخل بنظام القصة إخلالا خطيراً. فالجمال لا يستقيم إلا إذا جاوره القبح، والنعيم لا يكمل إلا إذا جاوره الجحيم. وما ينبغى أن تحتج على بنعيم الجنة وجمالها؛ فنعيم الجنة وجمالها لا يستقيمان إلا إذا كان بازائهما قبح جهنم، وما يَصْلَى الخاطئون فيها من نار الجحيم.

لا بد إذن من أن أُتم تصوير الربوة بشئ من الحديث عن هذا الملحق الذى لا يستقيم أمرها بدونه. وهذا الملحق قرية تقوم على السهل المنبسط مما يلى الربوة، وهى بعيدة الأرجاء، مترامية الأطراف قبيحة المنظر إلى أقصى غايات القبح، تقوم فيها دور منخفضة لا تكاد ترتفع فى الجو إلا قليلا، لم تتخذ من الحجر ولا من الآجرّ ولا من اللبن، وإنما اتخذت من الطين قد صنع صناعة غليظة خشنة، وأسند بعضه إلى بعض وأقيم بعضه على بعض، فائتلفت منه بيوت كانت تريد أن تكون جحوراً تتخذ فى باطن الأرض، ولكن أهلها لم يجدوا من القوة ولا من الجهد ولا من المال ما يمكّنهم من احتفار الجحور فى الأرض، فآثروا أيسر الأمرين واتخذوا دورهم من هذا الطين المهمل الغليظ.

وقد قامت هذه القرية البائسة، فى هذا السهل المنبسط، على شاطئ النهر الجميل، وإلى جانب الربوة الرائعة، ليعلم الناس وليعلم النهر أيضاً، وليشهد النهار المشرق والليل المظلم، وليسجل التاريخ الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها. أن الحياة مزاج من الخير والشر، ومن النعيم والبؤس، ومن الجمال والقبح، ومن السعادة والشقاء وأن تمايز الأشياء وتفاوت الأحياء صل من أصول الوجود. فلولا الفقر ما كان الغنى، ولولا البؤس ما كان النعيم، ولولا الانخفاض ما كان الارتفاع، ولولا الضيق ما كانت السعة.

ولست فى حاجة إلى أن أفصل ما تمتاز به الربوة من جمال، وما تمتاز به القرية من قبح. فقد لا يكون من الخير ولا من الذوق ولا من حسن الرعاية للقراء أن أستأثر وحدى بهذا الوصف؛ فأنا لم أستأثر بالخيال من دون القراء، بل أنا قد أكون أقل الناس حظّاً من الخيال وقدرة

على الوصف وبراعةً فى الأداء . ولم يخلق الله أديباً يستطيع أن يستأثر وحده بوصف مايعرض على قرائه من الأشياء والأحياء ؛ فهذا الوصف شركة دائماً بين الأديب المنتج والقارئ المستهلك . وليس من المحقق أن الأشياء التى يعرضها الأدباء تقع فى نفوس القراء كما يعرضونها عليهم ، وإنما الشئ الذى ليس فيه شك هو أن القراء يشاركون فى الخلق والإنشاء ، ويسبغون من ذات أنفسهم على ما يجلو لهم الكتاب من صور ألواناً لعل الكتاب أنفسهم لم يروها ، ولعلها لم تخطر لهم على بال . فهذه الربوة التى تحدثت عنها ، وهذه القرية التى أشرت إليها ، تقعان من نفوس القراء على اختلافهم مواقع مختلفة متباينة ، لعلها لا تلتقى ولا تتشابه إلا فى القليل . فالإنتاج الأدبى إذن شركة بين الأديب وقارئه ، وليس الأديب فى حقيقة الأمر إلا رائداً يمهد الطريق . وما ينبغى للقراء إذن أن ينخدعوا عن أنفسهم ، ولا أن يخلعوا على الأدباء هذه الخصال الرائعة التى تثير فيهم الغرور وتغريهم بالكبرياء . والذى أريد أن أصل إليه هو أنى أعتمد على القراء فى أن يُعْمِل كل منهم خياله ما وجد إلى إعماله سبيلا ، ليصور لنفسه هذه الربوة جميلة كأروع ما يكون الجمال ، وهذه القريةَ قبيحة كأبشع ما يكون القبح ، وألا تكون قراءتهم سلبية غير ذات غناء . فهذه القصة لا تحتمل القراءة السلبية ، وإنما هى تريد ، بل هى لا تقوم إلا على المشاركة الإيجابية بين الكاتب حين يرسم الخطوط وبين القارئ حين يتم الرسم ويملأ ما بين الخطوط من فراغ لعله تُرِك عن إرادة وعمد

ولعل القارئ يظن ، وهو معذور إن ظن ، أن هذا الحديث قد طال وأسرف فى الطول قبل أن يصل إلى أول هذه القصة ؛ فكتّابنا قد عودوا القراء أن يهيئوا لهم الأدب كما يهيأ لهم الطعام ؛ فليس على القراء إلا أن يقرأوا ويسيغوا ، كما أنهم أو كما أن بعضهم ليس عليه إلا أن يجلس إلى مائدة الطعام فى مواعيد موقوتة ليمضغ ويسيغ .

أما أنا فلا أحب هذا اللون من الطهى الأدبى ؛ لأنى أكبر نفسى وأكره أن أكون خادماً للقراء من جهة ، ولأنى أُكبر القراء ، وأكره أن تكون آذانهم أفواهاً وعقولهم بطوناً يلقى إليهم الكلام فيسمعون ثم يسيغون . لا أحب شيئاً من هذا ، وإنما أحب أن أنشئ بينى وبين القراء نوعاً من

الزمالة ، بحيث نبدأ القصة معا ، ونمضى فيها معا ، وننتهى منها معا ، نتفق أحياناً ونختلف أحياناً أخرى ، ويشجر بيننا الخصام من حين إلى حين

وقد كدنا نصل إلى أول القصة إن كنا لم نخط فيها خطوات واسعة فيما أعتقد . فليست القصة حكاية للأحداث وسرداً للوقائع كما استقر على ذلك عرف النقاد والكتاب ، وإنما القصة فقه لحياة الناس وما يحيط بها من الظروف ، وما يتتابع فيها من الأحداث . وإذا كان الأمر كذلك وهو عندى كذلك ، فنحن قد بدأنا القصة منذ الكلمة الأولى من هذا الحديث . وعلى كل حال فليس بيننا وبين الأخذ فى عرض الحوادث إلا شئ واحد ، وهو أن نتبين الصلة بين القرية الملقاة على السهل والربوة المشرفة على النهر . وهذه الصلة قريبة كل القرب ، يسيرة كل اليسر ، ليست بعيدة ولا عسيرة كالصلة بين القصر وقريته فى قصة الكاتب المعروف كفكا Kafka لأنى لا أصطنع فى حديثى رمزاً ولا إيماء ، وإنما أصطنع الصراحة التى تؤثر الجلاء وتكره الغموض . والذين قرأوا قصة القصر لهذا الكاتب ذى الصوت البعيد يعرفون أن قصره إنما هو رمز للعالم العلوى ، وأن قريته إنما هى رمز للعالم السفلى ، ومن هنا تعقدت الصلة بين هذين العالمين . أما ربوتى أنا فهى ربوة من هذه الربى التى يراها الناس فى كل يوم ويقرءون عنها فى كل كتاب من كتب الأدب ، وليس أدل على ذلك من أنى قد استعرتها من ذلك الشاعر الأندلسى القديم . وأما قصرى أنا فهو قصر من هذه القصور التى يشهدها الناس حين يصبحون وحين يمسون ، قد بنى من المادة التى تبنى منها القصور ، وأثث بالأثاث الذى تزدهى به القصور ، وأترف أهله كما تعوّد الناس أن يترفوا فى هذه الحياة التى نحياها ، وفى هذا العصر الذى نعيش فيه . فمن أيسر الأشياء أن يهبط رجل من أهل القصر إلى القرية ، ليس عليه فى ذلك إلا أن يمضى أمامه حتى يقرب من شاطئ النهر ، ثم ينعطف إلى يمين فيرى أمامه طريقين إحداهما ممهدة تمهيداً حسناً كأنها أعدت لصعود السيارات وانحدارها ، والأخرى ممهدة تمهيداً مقارباً ضيقة بعض الضيق ، ولكنها أقصر من الأخرى ، وهى الطريق التى يسلكها الراجلون ، وقد يرى فيها الفرسان الذين يمتطون الخيل . وكذلك يستطيع الرجل من أهل القرية أن يرقى إلى هذا القصر على قمة الربوة سالكا الطريق

الأولى إن أراد التيسير على نفسه بالسعى الهين والرقى السهل ، وإن أراد كذلك أن يلهو بما يلقى فى طريقه من هذه السيارات الصاعدة الهابطة بمن فيها من السادة والقادة والغادات الحسان . وسالكا إن شاء الطريق الأخرى إذا لم يشفق من التصعيد العسير الملتوى ، وإذا كان حريصاً بنوع خاص على أن يبلغ القصر فى أقصر وقت ممكن وفى غير تلكؤ أو إبطاء . هذه هى الصلة المادية بين الربوة والقرية ، وهى كما ترى قريبة ميسرة . فأما الصلة المعنوية فأشد من الصلة المادية قرباً وأعظم منها يسرا ، هى صلة السادة بالخدم ، أو صلة الخدم بالسادة لا أكثر ولا أقل . وما ينبغى أن تظن أن أهل القرية جميعاً خدم يعملون فى القصر يرقون إليه مع الصبح ويهبطون منه مع الليل ؛ فأهل القرية ليسوا من هذه الخدمة فى شئ ، بل هم لا يرقون إلى القصر إلا قليلا ، وهم حين يرقون إليه لا يبلغونه فضلا عن أن يدخلوه ، وإنما يبلغون مكاتب الدائرة التى ألحقت به ، فيتصلون بهذا الموظف أو ذاك لما يمكن أن يكون بينهم وبين هذا الموظف من عمل . هم خدم للقصر على هذا النحو الذى تعرفه والذى تراه فى كل مكان يقوم فيه قصر فخم وتنبسط فيه أرض زراعية يملكها أصحاب القصر ، ويعيش من حوله قوم يعملون فى هذه الأرض ويعيشون مما يعملون . فجزء عظيم من السهل المنبسط فى أسفل الربوة ملك لسادة القصر ، وأهل هذه القرية هم الفلاحون الذين يزرعون هذه الأرض ويستغلونها ويستخلصون خيراتها لسادتهم . يقدمون إليهم كل هذه الخيرات ويعيشون على ما يَسقط منها هنا وهناك وعلى ما يتفضل به عليهم سادتهم من الفتات . لا يملكون شيئاً ، وليس لهم أمل فى أن يملكوا شيئاً ، لا يكادون يملكون أنفسهم ، وليس لهم أمل فى أن يستقلوا بملك أنفسهم . هم أحرار فى ظاهر الأمر يذهبون ويجيئون ، ويستيقظون وينامون ، ولكنهم رقيق فى حقيقة الأمر لأنهم لا يذهبون إلا إلى حيث يعملون ، ولا يجيئون إلا إلى حيث ينامون ، ولأنهم يَطْعَمون ما أريد لهم أن يطعموا لا ما يريدون هم أن يطعموا . ولعلهم لا يريدون أن يطعموا إلا ما يسر لهم ؛ لأنهم لا يعرفون غير ما يُيَسَّر لهم ، ولا يستطيعون أن يطمعوا فيما لا علم لهم به . ولأنهم بعد ذلك لا يستطيعون أن يتصرفوا فى شئ لأنهم لا يجدون شيئاً ، ولا يطمعون فى أن يجدوا شيئاً يمكن أن يتصرفوا فيه . هم أحرار

كالعبيد، وعبيد كالأحرار، ليسوا راضين ولا ساخطين؛ لأنهم لا يعرفون الرضا ولا السخط، وإنما يعيشون كما تعيش النمل تدفعهم الغريزة وتدبر أمرهم إرادة سادتهم فى القصر. ويجب أن نعترف بأن هؤلاء السادة قساة القلوب غلاظ الأكباد، يؤثرون أنفسهم بكل شئ، ولا ينزلون لغيرهم عن شئ؛ ولأجل هذا قلنا إنهم لا يمكن أن يكونوا من المصريين.

وقد آن للحوادث أن تحدث، وللقصة أن تأخذ طريقها إلى الوجود إن لم تكن قد أخذته من قبل. وأول ما نشهده من حوادث القصة منظر هذا الشاعر الذى نيّف على الستين ولكنه احتفظ بقوة توشك أن تكون قوة الشباب، وهو على ذلك يتكلف الشيخوخة ويتصنع الضعف حين يراه سادة القصر، وهو لا يمشى إلا متوكئا على عصا يسرف فى الانحناء عليها إذا رآه الناس، فإذا خلا إلى نفسه اعتدلت قامته واستقام قده، ونظر إلى ما حوله معجباً تياها. وقد تعوّد صاحب القصر الذى سنعرفه بعد قليل أن يراه منحنياً يمشى على ثلاث، كما كان يقول أبو الهول فى سؤاله لأوديب فكان كل ما رآه أنشد متضاحكا ساخراً قول جرير:

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع

ونحن نرى هذا الشاعر الشاب الشيخ وقد خرج من الجناح الذى يقيم فيه عن يمين القصر، وسعى منحدراً فى بطء وتمهل يريدأن يبلغ المجلس الذى تعوّد أن يلقى فيه صاحب القصر فى جوسق جميل على شاطئ النهر، ولكنه يلقى فى طريقه شيخاً لاحظ له من قوة ولا من شباب وهو البستانى عثمان الذى يقول له فى صوته المتهالك المحطم: «فى المكتب، يا سيدى فى المكتب! إنه لم يخرج اليوم من مكتبه ولم يهبط إلى الحديقة، ولم يقف عند أزهاره التى تعوّد أن يطيل الوقوف عندها». قال الشاعر الشيخ الشاب: «عِمْ صباحاً ياعثمان، فى المكتب! ماذا سيصنع سيدك فى المكتب أيمكن أن يعيش الناس تحت السقوف وبين الجدران حين تصفو السماء وتتألق الشمس وتَزَيّن الأرض ويتهادى النهر على هذا النحو! دعه فى المكتب؟ ياعثمان ولا تؤذنه بمكانى إلا أن يسألك، ولكن أرسل إلىّ القهوة، أرسل إلىّ قدحين لا قدحاً واحدا، وقف على إبراهيم حتى يتقنها، فأنت تعرف القهوة التى أحب». قال عثمان: «طاعة ياسيدى! ولكنى

رأيت مولاى عابسا هذا الصباح كما لم أره قط » . قال الشاعر :« عابسا ! عابسا ! لقد أدركه بعض الخبل ، إنه يعبس والدنيا باسمة ، ويحبس نفسه وكل شيء يدعوه إلى أن ينعم بهذا الجمال . دعه محبوساً عبوساً ، وأرسل إلىّ قهوتى ولا تنبئه بحضرى إلا أن يسألك .»

ثم مضى أمامه منحنياً على عصاه مستأنيا متمهلا حتى بلغ الجوسق فجلس إلى المائدة ونشر أمامه أوراقا وأخذ بيده قلما وجعل يطيل النظر إلى النهر كأنما كان يستمليه ثم يكتب متباطئا على ما بين يديه من الأوراق .

[يتبع]

طه حسين